الفصل السادس

أسباب انهيار الحضارة الإسلامية

في غضون القرن الثالث عشر والرابع عشر للهجرة كان الوجود الإسلامي يُعاني من علل مبرحة ، كان الرجل المريض - كما سمُّوه - يترنح وهو يسير ببطء نحو مصيره ، حاوَل نفر من المصلحين أن يعطوه حُقناً تُجدِّد حياته بَيْدَ أن جهودهم ضاعت سُدى .

سقطت الدولة الإسلامية سقوطاً مروِّعاً ، وظهر جلياً أن الانهيارات الداخلية هى التي عَجَّلت بهذا الختام الكئيب .

ومع أن الدولة قضت إلا أن الأُمة بقيت تواجه مستقبلها ، وشرعت الجماهير تتلمس الطريق إلى مستقبل أشرف ، وتتغلب بجهد شديد على العقبات الكثيرة التي تسد أمامها المنافذ ...

وإذا كان أغلب البلاء جاءنا من عند أنفسنا ، فيجب أن تتجه الجهود إلى الإصلاح الداخلي قبل أن تفكر في ضرب العدو المتربص ! فإنها لو هزمت عدوها - فرضاً - وبقيت أدواؤها الداخلية على جسامتها فلن يُعَدْ ذلك نصراً للإسلام ، ولن تكون الأُمة المنتمية إليه قدوة حسنة للعالَمين .. !!

فكيف ونحن لا ننتصر إلا بالإسلام وحده ، وبالولاء له ، والتطبيق الحسن لتعاليمه .

من أجل ذلك نُريد إلقاء نظرات صريحة على أسباب تخلفنا بعد أن كنا طليعة معجبة ، ولا يجوز أن نخجل من إحصاء عيوبنا إذا كنا نريد الشفاء المريح والرضاء الأعلى .

ويمكن أن نقول إجمالاً : إنه كان هناك قصور في فهم الإسلام شمل عدداً من المفاهيم والقضايا ، كما كان هناك تقصير متعمد بإضاعة تعاليم صريحة والخروج عليها .

القصور ضعف في الفقه ، أما التقصير فعصيان سافر ، وقد يرى القاصر أو المقصِّر أنه سليم المسلك ، ولكن المعلول لا يُعد صحيحاً إذا كانت الجراثيم تسرح في كيانه ولا بد أن تثأر منه سُنَن اللّه الكونية التي لا تُحابي أحداً .. !!

من الرذائل المنكرة التي انتشرت في تاريخنا حب الرياسة وطلب الإمارة مع أن الإسلام رهَّب ترهيباً شديداً من هذه الخلة ، وبيَّن أن أمر هذه الأمة لا يسلم لمن يطلبه ، ويحرص عليه ، ويتوسَّل بما أمكن ليبلغه .. !!

هناك أناس يتعشقون الصدارة كي يفرضوا ذواتهم على المجتمع ، أقلهم يملك المواهب التي تسعفه ، وأكثرهم مريض بحب الظهور ، وتجاوز الآخرين ..

والأمم السعيدة هي التي تمنح قيادها من يقلق لتحمل المسئولية ، ومن ماتت في نفسه غرائز الأثرة والاستعلاء ..

والغريب أن التاريخ الإسلامي تقسمته أفراد وأسر من الصنف المعتل الذي يُشبع بالحكم نهمته إلى السلطة والترف .

والويل لأمة يتولى أمرها شرارها وتتمرد على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ (١) .

ذاك نموذج سريع للتقصير في ميدان الحكم ، أما التقصير في الميدان الاجتماعي فهاك صورة سريعة له :

جاء في السُّنَن الصحاح عن عبد اللّه بن عمر أن رسول اللّه ﷺ قال : « لا تمنعوا إماء اللّه مساجد اللّه » فلما روي ابن عمر هذا الحديث قال ولده : واللّه لنمنعهن !! فأقبل أبوه عليه يسبه أشد السب ، وقاطعه طول حياته ...

والغريب أن الأمة الإسلامية خلال القرون المتأخرة تبعت الابن العاق ، وغضَّت الطرف عن الحديث الذي رواه أبوه .

فتقرر حرمان النساء من دخول المساجد للصلوات الجامعة ، ولسماع الخطب والدروس .

---

(١) النساء : ٥٨

ولما كنتُ مديراً للمساجد بمصر بذلتُ جهوداً كبيرة ليأخذ النساء وضعهن في بيوت الله ، وأمكن بعد لأى إعداد أماكن لهن في بعض المساجد على إغماض من الرجال وضيق !

ولا يزال منع النساء من المساجد حكماً سارياً في أقطار شتّى مما أضر أبلغ ضرر بالأسرة المسلمة ، وارتباطها بالعبادات المقررة ..

ولنعط كذلك نماذج عاجلة للقصور الديني عند بعض الناس ..

كنتُ أقرأ لمؤلف تركي يُنَفِّر الأتراك من الدين الإسلامي والتمسك به ، فرأيتُ هذه العبارة : « يا للحيرة من عقولكم واعتقاداتكم الباطلة ، تتركون تقديس سلطان قوي الشَوكة كحضرة الفاتح - يقصد السلطان محمد الفاتح - وتوجهون احترامكم لشخص خيالي موهوم اسمه الخضر ... » .

وقصة أن الخضر رضي الله عنه حي يُرزق يسيح في الأرض قصة تافهة وسخيفة ، ومع ذلك فإن أعداداً من المتصوِّفة تتعصب لها وتجادل دونها كأنها من معالم الدين ، وهي - كما ترى - من أسباب مروق بعض المتمردين ..

وحدث من مظاهر القصور الديني - أن استقدم بعض العلماء ليقرأوا البخاري في سفن الأسطول التركي حتى تحصل البركة ، وكان تعليق بعض الظرفاء أن الأسطول يسير بالبخار لا بالبخاري !

ومن الأحداث الجديرة بالنظر أن أحمد عرابي باشا أقام مع رجاله قبيل موقعة التل الكبير حفل ذكر - رقص ديني بالتعبير الصريح - كي ينصره الله على الإنجليز وكانت النتيجة أن انهزم بعد معركة استغرقت ثلث الساعة ...

كان التصور الديني أن تلاوة الأوراد ، من الكتاب ، أو السُنَّة أو تآليف المشايخ تصنع العجائب ، وقد صنعت فعلاً صدعاً هائلاً في تاريخ كبير !!

فلنترك هذه الأمثلة السريعة ولننظر آثاراً مفصلة للقصور والتقصير في حياتنا الإسلامية كي نعرف ما نال منا في الماضي حتى نتجنبه في يومنا وغدنا .

١ - التصوير الجزئي للإسلام :

الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شُعبة ، هل هذه الشُعَب مركوم بعضها فوق البعض كيفما اتفق ؟ هل هي كسلع اشتراها شخص من السوق ثم وضعها في حقيبته كيفما تيسر ؟ لا .. إنها شُعَب متفاوتة الخطر والقيمة ، ولكل منها وضع عتيد في الصورة الجامعة لا يعدوه .

والشبكة التي تُكوّن شُعَب الإيمان كلها تشبه الخارطة الموضوعة للجهاز العامل في إحدى الوزارات أو إحدى المؤسسات ، هناك مديرون ، وهناك مساعدون ، وهناك فَعَلَة ، وهناك مراقبون ، وبين هذه وتلك علاقات مرسومة ونظم إرسال واستقبال وتنفيذ وإنتاج ...

إن شُعَب الإيمان التي تُعَد بالعشرات تشبه السيارة المنطلقة ، لها هيكل وإطارات وقيادة ووقود وكوابح ومصابيح وكراسي وغير ذلك ، وكل منها له وظيفته وقيمته ...

ومنذ بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل ، وأُصول وفروع ، وأعمال قلبية وأعمال جسمية .. !

والذي يحدث عند بعض الناس أن جزءاً ما من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله ..

وقد كان الخوارج أول من أُصيب بهذا القصور العقلي أو بهذا الخلل الفقهي ، قاتلوا علياً أو يتبرأ من التحكيم ، وقاتلوا عمر بن عبد العزيز أو يلعن آباءه ملوك أُمية .

وسيطرة فكرة معينة على الإنسان بحيث تملأ فراغه النفسي كله ، ولا تدع مكاناً لمعان أُخرى شيء لا يُستساغ ، لَقِيَني رجل من المعروفين بالطيبة وسألني : هل تؤمن بكرامات الشيخ فلان ؟ قلتُ : لم أقرأ سيرة هذا الشيخ ، قال : إليكَ كتاباً يشرح سيرته .. ثم لَقِيَني بعد فترة وسألني : ما رأيك ؟ قلت : نسيتُ أن

أقرأ الكتاب ، قال : كيف ؟ - بانفعال - قلت : الأمر غير مهم .. إذا مت وأنا لا أعرف صاحبك فإن الله غير سائلي عنه وعن كراماته ، فانطلق يشيع عني أني مارق لا أؤمن بالكرامات ..

وقابلني آخر يقول : ما رأيك في الموسيقى ؟ فأجبت : إن كانت عسكرية تُثير الحماس والتضحية فلا بأس ، وإن كانت عاطفية تُثير النشاط أو الرِّقة فلا بـأس .. وإن كانت تُثير العبث والمجون فلا .. فانطلق يُشيع عني أني متحلل أسمع الحرام ..

كلا الشخصين آمَنَ بشيء حسبه الدين كله فهو يُحاكم الأشخاص والأوضاع إليه وحده .

وهذا التوَرم الذي يُصيب جانباً دينياً معيناً هو السر وراء فقهاء لهم فكر ثاقب وليست لهم قلوب العابدين ، ومتصوِّفين لهم مشاعر ملتاعة وليست لهم عقول الفقهاء .

وهو السر وراء مُحَدِّثين يحفظون النصوص ولا يضعونها مواضعها ولا يُجيدون الاستنباط منها .

وأصحاب رأى يلمحون المصلحة ولا يُحسنون مساندتها بالنص المحفوظ .

وهو السر وراء حكام يعملون حسب المواصفات المقررة - رعاة للجماهير ، وباعهم فى تقوى الله قصير ، وعامة يعكفون على العبادات الفردية ، فإذا بلغ الأمر النصح والزجر والأمر والنهى والتعرض لغضب الحكام لاذوا بالصمت الطويل .

وهو السر وراء أناس يتقنون مراسم العبادة ولا يُفَرِّطون ذَرَّةً في صور الطاعات الواردة ، ومع ذلك لا يعون من حكمتها شيئاً ولا يستفيدون منها خُلُقاً .

الصلاة تُورث النظام والنظافة ، وهم فوضى شَعِثون .

والحج رحلة العمر التي تعمر القلب والجوارح بالسكينة والرحمة وهم في أثناء المناسك وبعدها قُساة سيئون .

إن الدعوة الإسلامية تحصد الشوك من أناس قليلي الفقه كثيري النشاط ينطلقون بعقولهم الكليلة فيُسيئون ولا يُحسنون .

ماذا يفيده الإسلام من شبان يغشون المجتمعات الأوروبية والأمريكية يلبسون جلاليب بيضاء ويجلسون على الأرض ليتناولوا الطعام بأيديهم ثم يلعقون أطراف أصابعهم ، وهذا في نظرهم هَدْيِ الرسول ﷺ في الأكل ، والسُنّة التي يبدأون - من عندها - عرض الإسلام على الغربيين .

هل هذا آداب الإسلام في الطعام ؟

وعندما يرى الأوربيون رجلاً يبغي الشرب فيتناول الكأس ثم يقعد وكان واقفاً ليتبع السُنّة في الشرب فهل هذا المنظر الغريب هو الذي يُغري بدخول الإسلام؟.

لماذا تُجسَّم التوافه على نحو يصد عن سبيل الله ويبرز الإسلام به وكأنه دين دميم الوجه .

ثم إن الدعوة إلى الإسلام لا يُقبل فيها عرض القضايا الخلافية مهما كانت مهمة عند أصحابها ، والأكل على الأرض أو بالأيدي مسألة عادية وليست عبادية ، ومن السماجة عرض الإسلام من خلالها .

ووضع النقاب على وجه المرأة أمر تناوله الأخذ والرد ، ولا يسوغ بحال تقديمه عند عرض دين الله على عباد الله .

وتدبر هذا الحديث الذي رواه البخاري في أسلوب عرض الرسالة الإسلامية كما أحكمه رب العزة ، عن يوسف بن ماهك قال : إني عند عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إذ جاءها عراقي فقال : أى الكفن خير ؟ قالت : ويحك ! ما يضرك ؟ قال : يا أم المؤمنين .. أريني مصحفك ! قالت : لمَ ؟ قال : لعلي أؤلف القرآن عليه فإنه يُقرأ غير مؤلَّف . قالت : وما يضرك أية قرأت قبله ؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب

الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنا أبداً ، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (١) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده قال : فأخرجت له المصحف فأملت عليه - أي السورة .

لكن أناساً يشتغلون بالدعوة لا فقه لهم ولا دراية ، يُسيئون إلى هذا الدين ولا يُحسنون ، وفيهم من يمزج قصوره بالاستعلاء ولمز الآخرين .

وقد تطوَّر هذا القصور فرأيتُ بين أشباه المتعلمين ناساً يتصورون الإسلام يُحَد من جهاته الأربع بلحية في وجه الرجل ونقاب على وجه المرأة ورفض للتصوير ولو على ورقة ، ورفض للغناء والموسيقى ولو في مناسبات شريفة وبكلمات لطيفة ..

ولا أريد تقرير حكم معين في أشباه هذه الأمور ، وإنما أريد ألا تعدو قدرها .. وألا يظنها أصحابها ذروة الدين وسنامه ، وهي شئون فرعية محدودة ، يُعتبر القتال من أجلها قضاءً على الإسلام وتمزيقاً لأمته ...

* * *

٢ - الثقافة الإسلامية في طورها القائم تحمل مخلّفات القرون الماضية بما فيها من قوة وضعف ، واستقامة وعوج ، وأخلاطاً لا حصر لها من أفكار ومذاهب تفتقر إلى التمحيص ، وتفرض علينا ميز الخبيث من الطيب .. !

وهناك ملاحظات صادقة على هذه الثقافة الموروثة ، يجب وعيها لأنها وراء المد والجَزر الذي تعرَّض له تاريخنا الطويل .. ونُوجزها فيما يلي :

(أ) التقعر في دراسة ما وراء المادة مرض أصاب المسلمين ولوى مسيرتهم العلمية ليّاً شائناً . والمعروف أن الآيات المُحكَمة هي أم الكتاب ومناط التكاليف الاعتقادية والعلمية ، وأنه بحسب المسلمين في عالم الخُلق والسلوك ،

---

(١) القمر : ٤٦

وعالَم العقيدة والعبادة ، وعالَم القضاء والتشريع ، أن يعتمدوا على هذه الآيات المُحكَمة وحدها .. أما ما تشابه في الحديث عن ذات اللّه وصفاته فلا مجال للعقل في بحثه ...

إن العقل البشري أعجز من أن يفقه حقيقة الروح بين جنبيه ، بل أعجز من أن يفقه تحول الأغذية في جسده إلى طاقة وخلايا .

فكيف يريد أن يعرف كُنه الألوهية ، واتصال الذات بالصفات . ؟

لكن المسلمين للأسف خاضوا بحاراً مُغرِقة في هذه البحوث العقيمة كان لها أثر وخيم في تعجيز العقل الإسلامي عن البحوث المادية وإحسان الإفادة منها . وهذا الاتجاه الشارد عصيان للّه الذي أمر بالنظر في الكون ، وبني على هذا النظر السديد حسن الإيمان وجميل المنفعة .

(ب) الإسلام دين عمل يؤثر الواقع على الخيال ، ويؤثر الحقيقة على الظن ، ويؤثر الحركة الماضية في مرضاة اللّه على اللّغو والشقشقة وافتراض الفروض وتشقيق الكلام ، وهل نجح سَلَف الأمة إلا بهذا المنهج ؟

بَيْد أننا وجدنا الدراسة الدينية تميل إلى الشروح النظرية المطوّلة دون سبب واضح .

والذي أحسه أن دراسة الطهارات والصلوات لا تحتاج إلى هذه التآليف المسهبة والأوقات المتطاولة ، ومع ذلك فقد أصبح ذلك جزءاً من أعمار المسلمين .. ومثار افتراق واسع بين الدهماء ، بل بين نفر من المنتسبين إلى العلوم الدينية .

ولم يكتف البعض بهذا الطول المفتعل فأضاف إلى أعمال الحج أدعية في أشواط الطواف وأشواط السعي لا أصل لها ، حتى يزيد المراسم وعورة وتهيباً ...

وقد تأدت هذه المزايدات إلى إضعاف علاقة المسلمين بالحياة ، وكانت مشغلة لهم عن إنتاج أهم وأجدى .

(جـ) هناك فارق مؤكد بين درجة التخصص ودرجة التثقيف العام ، فالتخصص يلم بمعارف شتّى في فنه ، ويعيبه أن يجهل ناحية ما في ميدانه .. أما أصحاب الثقافة العامة فيكفيهم ما يحتاجون إليه في بيئاتهم وأحوالهم ، ولا معنى لحشو أذهانهم بما لا أثر له في معايشهم ..

وقد رأيتُ أُناساً من العوام تبلبلت أفكارهم إثر أحاديث نبوية دُرِّست لهم ، وهى أحاديث صحيحة السند ، ولكن ليس من الحكمة أن يعرفها العوام ، فهى فوق طاقتهم الذهنية وقد جاء في الأثر : « إنك ما حدَّثتَ قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » .

ومع ذلك فإن قروبين وبدواً أو هُملاً من الخلق يُذكر لهم أن نبياً ضرب ملك الموت ففقأ عينه ، وأن آدم حَجَّ موسى في القَدَر فغلبه ، وأن موسى راجع نبينا في الصلوات الخمسين حتى جعلها خمساً ، وأن الجبَّار ليلة الإسراء هو الذي دنا فتدلى .. إلخ .

لماذا تُشغل أذهان الجماهير بهذه الأمور ؟ ولماذا لا يُختار لهم من السُنَن ما يُصحِّح وجهتهم في الحياة ؟ لقد توارث العوام أن سماع هذا الكلام عبادة وأورثهم ذلك شيئاً من الخدر والاسترخاء غير قليل ..

(د) ألف المسلمون أن يُحفِّظ القرآن للأطفال ، وألفوا أن يُوجَّه للتعليم الديني الضعاف والفقراء وذوو العاهات .. وفي بعض الأقطار الإسلامية يكاد العلم الديني يكون نصيب المطرودين من ميادين التعليم التي يُشترط فيها التفوق والتبريز أو حُسن المظهر وقوة العصبية ..

وهذا المسلك يُزرى بمعنى التدين ، ويُضعف أهل الدين عن اقتياد الحياة بقوة وقد يُعجزهم عن مقاومة الجبَّارين والخطَّائين ..

وعلى ضوء التجارب الكثيرة ينبغي وضع سياسة أُخرى للتعليم الديني ..

ولنذكر أن الفجوة عمقت بين العلم والحكم في تاريخنا ، وأن عدداً من الأئمة والأشياخ أدَّى واجبه شامخاً راسخاً .

ولكن عدداً آخر - ربما كان أكبر - آثر الانزواء ، وارتضى في تغيير المنكر أضعف مراتب الإيمان ..

وهناك فريق آخر ربما كان أكبر وأكبر مشى وراء الساسة مداهناً فأكل من حلوائهم وسكت عن أهوائهم ..

وإذا فسد العلماء والحكام أخذت الأمم طريقها إلى القاع ..

* * *

٣ - موقف المسلمين من الدنيا :

الذى أبدع هذا العالم الكبير يعرف أنه أبدع شيئاً يبهر ويعجب ، وعندما يلفت النظر إلى أسرار جماله ، ووساقة بنائه ، فهو يرجعنا إلى الشعور بعظمته، ويثير في أنفسنا الخضوع والإعزاز لقدرته وحكمته .. !!

أحياناً أفكر فى هذا الهواء الرقيق المنتشر في الجو ، إنه بلطافته يُثير الأبخرة فتتصاعد سُحباً ومع ذلك فهو يُضغَط داخل أُطر السيارة فإذا الهواء المضغوط يحمل فوقه عصابة من الرجال وكتلاً من الأثقال ..

إن صانع هذا الهواء يُقسم به في أطواره المختلفة ..

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالحَامِلاتِ وِقْراً * فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْراً * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ (١) .

ما معنى هذا القَسَم ؟ إنه لفت نظر لما في هذه الحياة من آيات تدل على الرب المبدع ، وليس غريباً أن يقول لك المنهدس العبقري الذي صنع سيارة جيدة : انظر السرعة الفائقة ، انظر الآلات الدقيقة ، انظر الكراسي الوثيرة ، انظر المصابيح الكاشفة ..

إنه يُلفت إلى ما صنع لك ، ولكنه - قبل ذلك وبعده - يُلفتك إلى عبقريته ومهارته .!

---

(١) الذاريات : ١ - ٥

ولقد كان جديراً بالمسلمين أن يفكروا في الكون ، وينتهزوا فرصة حياتهم على الأرض ليعرفوا عظمة رب العالمين ، بدراسة خواص المادة والقوانين السارية بين شتّى العناصر ..

إن اللّه لا يُعرف بدراسة ذاته فهذا مستحيل ، وإنما يُعرف بدراسة ملكوته الضخم ، واستجلاء الآيات الدالة عليه هنا وهناك ، لا بأسلوب شعري هائم ، ولكن بأسلوب علمي صارم ..

وذلك هو منهج القرآن الكريم . وقد وُلدت الملاحظة والتجربة في البيئة الإسلامية ، وكان يمكن أن تترعرع وتُؤتي ثمارها إلى آخر مدى لولا الانحراف الذي أصاب العقل الإسلامي بالتقعر فيما وراء المادة ، ولولا انطلاق بعض المخربين يصرفون الناس عن الدنيا ، ويضعون على حواسهم حُجباً ، فلا يدركون من قوتها ولا من جمالها شيئاً ..

ويستحيل مع الجهل بالحياة وقوانينها أن يقوى الإيمان ويستوي على الطريق .

والثقافات الإسلامية المبتدعة والمنحرفة سر هذا العوج ، وفي مقدمتها التصوف الدخيل ، إن اللّه جل شأنه لما خلق البشر خلق لهم كل ما في الأرض لسيتمتعوا به ما داموا على ظهرها أحياء ، ومعنى ذلك أن يعرفوا ما هيأ لهم معرفة شاملة .

فمن الغباوة أن يأكل المسلمون ويزرع غيرهم ، أو يستهلكون وينتج غيرهم ..

إن العلم بالحياة الدنيا وارتفاقها والاستمكان منها معان إنسانية عامة فُطِرَ الناس عليها ، ولا يُعد التنبيه إليها مثار دهشة ، بل الدهشة أن يتقلب الناس في جنبات الأرض دون قدرة على إثارتها ..

وكما ينتفع الناس بالحياة الدنيا لذواتهم ينتفعون بها في دعم أفكارهم وتأييد مبادئهم وقيمهم ، فالكف العزلاء تخذل الحق ، والسلاح التافه يجر الهزيمة ..!!

وقد استطاع ناس كثيرون أن يعرفوا من دراسات الأرض والسماء ما جعل أيديهم باطشة وأسلحتهم فاتكة ، فأين منزلة المسلمين من هؤلاء ..

عندما كنتُ أقرأ الهجوم الفرنسي على مصر في القرن الثالث عشر للهجرة كنت أحسُ طنيناً في دماغي لغزارة ما سُفك من دمائنا دون جدوى ، كان الفرسان الشجعان يذوبون أمام المدافع الحديثة والذخائر الخبيثة ، وكانت خبرة الفرنسيين بالحياة وعلومها وكشوفها تساعدهم على التوغل بقدرة وتُرغم الأحرار على الفرار أو الموت الرخيص ..

لماذا جهلنا الحياة وبحوثها على هذا النحو .

إن الأرض الإسلامية كلها استُبيحت نتيجة هذا الجهل الغليظ ، مع أن العلم بها لا يقل عن العلم بأركان الصلاة ، فإن بقاء الإيمان في الأرض ، وصحة الجهاد دونه ، لا يتمان إلا بهذا العلم الدنيوي ..

العلم الواسع بالدنيا ، والقدرة التامة عليها ، كانت أموراً بديهية عند أسلافنا .

وقد نصروا الحق بهذا الإدراك السديد ، ثم خلف من بعدهم مَن نفض يديه من شئون الدنيا فخذل نفسه ودينه على سواء ..

وقد قال المربون الأذكياء : املك الدنيا بغير حدود ، ولكن اجعلها في يديك لا في قلبك .

اجعلها في يدك لتنزل عنها فداء دينك وشرفك عند أول نداء .

ولا تجعلها في قلبك فتستبعدك ، وتكون كاليهود الذين ذمهم الوحي لشرهم فقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ (١) .

لقد كان من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية سوء الموقف من الدنيا وعلومها وبناء التربية الدينية على أفكار غيبية شاعت بين فريق من المتصوِّفة والزُهَّاد والفقهاء الصغار .

ولنفرق بين النوعين من التذكر والتفكر .. فإن الشائع بين جماهير العابدين الذكر العددي وهو ذكر تافه لا يفتح أغلاق القلب ولا يُوسِّع آفاق النظر .

---

(١) البقرة : ٩٦

وصورته أن يردد اللّسان اسماً من أسماء اللّه الحُسنى عشرات أو مئات أو ألوف المرات .. وقد تضاحك الظرفاء لأن الذاكر الذي يصيح « يالطيف » أعداداً متتابعة تتحوّل الكلمة على لسانه « فلطى فلطى » وهي كلمة تشبه بغام الدواب ولا تعنى شيئاً ..

إن هذا الذكر قليل الغَناء ، وقد استحسنه العُبّاد من عند أنفسهم لا من عند اللّه فإن الفكر الإنساني المتعرف على ربه أشرف من ذلك وأجل ...

إذا قال اللّه تعالى : ﴿ انْظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

فهل هذا الأمر يعني النظر الحالِم ؟ أو النظر القاصر ؟ أو النظر العقيم ؟

وهل تكرار هذا النظر التافه ، يُفيد يقظة ، أو ثقافة ، أو يُفتّق أمام العقل منفذاً يصله بعظمة اللّه وآياته ؟؟

والواقع أنه ما يوجد كتاب دين أمر بالنظر في الكون كالقرآن الكريم ، وما يوجد ناس في قرونهم الأخيرة ، عَمُوا عن النظر في الكون كجمهور المسلمين !!

ونشأ عن ذلك أن الأقمار الصناعية تنم عن أحوالهم وهم يلعبون في بلادهم ، وأن غيرهم يغزو الفضاء ويتلمس الكواكب ، وهم لا يُحسنون التنقل على الأرض إلا إذا صنع لهم غيرهم سيارة يركبها أو طائرة يقلها !!

إن الإسلام برىء من هذه البَلادة .. وقد كان المسلمون حتى عهد محمد الفاتح متفوّقين على خصومهم حضارياً ومدنياً وعسكرياً ، ثم غلبهم الضعف العلمي والعجز النفسي فأخذوا يتهاوون حتى ذهب ريحهم تماماً أول هذا القرن ..

وقضية الغِنَى والفقر تحتاج إلى بيان صحيح ، فإن جمهور المسلمين كان يُفَضّل الفقر على الغِنى ، ولا تزال كتبنا المتأخرة ترى أن الفقير الصابر أفضل عند اللّه من الغني الشاكر !

وقد يجرى على لسان المسلم في ذم الثراء وأهله قوله تعالى :

---

(١) الأنعام : ٩٩

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ، إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١) .

وهذا خطأ فاحش ، فالآية في الأغنياء الذين سَخَّروا ثرواتهم في نُصرة الباطل وضرب الإيمان ، وهل هزم هؤلاء إلا أغنياء سَخَّروا أموالهم في نُصرة الحق وكسر الطغيان ؟ إنه لأمرٍ ما أحصى اللّه العشرة المُبَشرَين بالجنة ، فكانوا جميعاً من هؤلاء الأغنياء الذين باعوا أنفسهم وأموالهم للّه ..

إن المال قوة هائلة ، والقُدرة على مساندة الدين به عمل صالح راجح ..

ونسأل : كيف تُبني مدرسة أو قلعة ، وتُزَّود هذه وتلك بالمعلمين والمقاتلين ما لم يكن ثَمَّ مال موفور ؟ وكيف تنشأ أجهزة الحرب والسلام وهي الآن فنون باهظة الكُلفة ما لم يكن وراءها مال ممدود ، وثراء عريض . !!

إن ترجيح البأساء والضرّاء على النعمة والعطاء تفكير بالغ السخف . والمال كما قال القرآن الكريم في أثره أساس الحياة :

﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ (٢) .

ونحن لا نعرف مصير كل فرد ، ولا دخيلة نفسه ، ولا حقيقة نيّته ، ولا تزال أنصبة الناس من الفقر والغِنَى مجهولة السبب ..

ففي البلاد الشيوعية فقرٌ حقيقي وغِنَى حقيقي ، والتمتع الذي يُباح للوزير أو مهندس الفضاء ، غير ما يُتاح للساعي أو الجندي ...

وفي البلاد الأخرى فقر وغِنَى كذلك وقد اعتبر القرآن الكريم أن كِلا الحالين ابتلاء ، يحكم اللّه فيه يوم اللّقاء ...

وليس ذلك إلينا ، وإنما الذي نستطيع تقريره بقوة أن الصعلكة لا تساند قيمة ما ، وأن الغِنَى مطلوب لتربية الفرد وتقوية المجتمع .

---

(١) التوبة : ٥٥ (٢) النساء : ٥

ويظهر أن هناك خَلطاً بين الغِنَي والإسراف والترف ، وأن هناك خَلطاً كذلك بين الفقر والقصد والاستعفاف .

وهذا الخَلط مرفوض بدءاً أو نهاية ، فلكل معنى حكمه . والذي نريد توكيده أن على المسلمين امتلاك الدنيا ، وحسن بذلها لله ، فإن الفقر العام شان حضارتهم في القرون الأخيرة وجعل أيديهم السُفلى في أكثر من ميدان .. !!

* * *

٤ - الجبرية فى العالم الإسلامى :

من أسباب انهيار حضارتنا شيوع مبدأ الجبرية بين الناس ، فالمرء لا حَول له ولا طَول ، ولا قدرة ولا إرادة .

وإنما هو يحيا بتوجيه خفي أو جلى من مشيئة الله التي تدفع به ذات اليمين أو ذات الشمال ، والتي تُهيىء له حياة العُسر أو حياة اليُسر برغمه .

وقد يُذكر من باب التغطية أو الاعتذار عن الشرع (!) أن للإنسان كسباً أو اكتساباً ، والحقيقة أنه مسلوب الإرادة على حد قول الصوفي :

* أنا قلمٌ والاقتدار أصابعُ ! *

وما يصنع القلم وحده ؟ إنه أداة وحسب .

أو كما يقول الجبريون أنفسهم في بيان حال الإنسان مع الأقدار الغالبة :

كريشة في مهب الريح حائرة لا تستقر على حال من القلق !

ولا يزال أغلب المسلمين إلى يومنا هذا يرون أن الطاعة والمعصية ، والغِنَي والفقر ، حظوظ مقسومة ، وأنصبة مكتوبة ، وأن المرء مُسيَّر لا مُخيَّر .

ونشأ عن ذلك أن الشخصية الإسلامية اهتزت ، وسيطر عليها لون من التسليم والسلبية ...

والسبب في ذلك علم الكلام ، والتصوف ، وبعض مفسري القرآن وشُرّاح السُنَن .

إن التربية الصحيحة تقوم على حقائق واضحة ، وعلى تقرير حاسم للمسئولية الإنسانية ولا يُجدى في هذا المجال جدل ولا لعب بالألفاظ .

ومذهب الأشعري الذي اعتنقه جمهور المتأخرين يتحدث عن المسئولية الشخصية بأسلوب غامض ، لا تتضح معه عدالة التكليف حتي قال الظرفاء فيـه : أخفى من كسب الأشعري !!

أما الصوفية .. فقد محقوا الإرادة البشرية ، وجعلوا الإنسان مشدوداً بخيوط إلهية إلى مصيره المجهول أو المعلوم ..

وكذلك فعل بعض علماء التفسير والحديث وهم يشرحون النصوص المتصلة بالقَدَر ، ولا بد من تخليص العقل الإسلامي من هذا القصور والتخبط ، بحيث يقبل المسلم على الحياة وهو موقن بأنه مُكلَّف حسب استعدادات حرة ، وأن له قدرة وإرادة يملكان قدراً من الاستقلال يُسئل به عما يفعل ، وأنه لا جبر ولا افتيات ولا تمثيل في قصة هذه الحياة التي نحياها .. !

* * *

• المسلمون وقانون السببية :

وينضم إلى شيوع مبدأ الجبر ضعف الصلة أو انقطاعها بين الأسباب والمسببات ، فعدد كبير من المربين والموجهين أشعروا الأمة بأن النار قد تُوجد ولا يُوجد الإحراق ، وأن الماء قد يُوجد ولا يُوجد الرِّى ، وأن السكين قد تُوجد ولا يُوجد القطع .. وأن الواجبات العادية قد تتخلف ، وأن قانون السببية - على الإجمال - غير ملزم ولا مطرد ..

وعلماء الكلام الذين مالوا إلى هذا الرأى أرادوا الرد على بعض الفلسفات الإغريقية التي تجعل الأسباب خالقة ، وتنسب إلى الطبائع ما يقع هنا وهناك ..

وكلام اليونان أن الطبيعة تخلق ، وأن السبب - من ذاته - يفعل كلام لا وزن له ، ولا دليل عليه ، بَيْدَ أن الرد لا يكون بنفى ما أودع الله في الأشياء من خواص ، وما ناطه بها من آثار ، فإن الأسباب - بقَدَرِ الله فيها - تُؤتِي

نتائجها حتماً ، أما خوارق العادات فلها شأن آخر وتعليلات فوق المعارف المعتادة ، وهي إذا صدقت شذوذ يؤكد القاعدة ولا يهدمها ..

لكن المسلمين - خصوصاً القرون المتأخرة - جعلوا الدنيا لا تضبطها قاعدة ، ولا يحكمها قانون ، ومن المقبول عقلاً وشرعاً أن يتزوّج رجل في المشرق بامرأة في المغرب ، وأن تلد منه على بُعد الشُقَة ، لأنه قد يكون من أهل الخطوة !!

أى ربما انتقل من المحيط الهندي إلى الأطلسي في لحظة ما من ليل أو نهار..!!

وهذا التصور المخبول لا ينضج معه علم ، ولا يصح فيه بحث ، ولا يملك أصحابه الأدوات التي يُحققون بها نجاحاً عملياً في هذه الحياة .

والمقرَّر في العلوم الكونية والتجريبية والإنسانية وغيرها أن قانون السببية محترم وأن رفضه جنون .

والغريب أن كتابات دينية كثيرة جعلت « الولاية » مقرونة بخرق العادة ولما كان في كل قرية شيخ مشهور بالصلاح ، ولما كان لا يخلو زمان من هؤلاء الأشياخ العظام (!)

ولما كان خرق العادة يقع منهم أحياءً وأمواتاً بطريقة يُعتبر إنكارها جُرماً ، فإن سيلان الخوارق زحم العالم الإسلامي ، وجعل قانون السببية لغواً ...

وكان لذلك أثر محزن في انهيار حضارتنا ، واختلال ثقافتنا ...

وقد تدارك العلماء هذا العوج وألّفوا رسائل في دعم قانون السببية وضرورة احترامه ..

والشيء الذي نقف عنده قليلاً هو هوس بعض الكاتبين في إثبات الولايات وخوارقها وكأن الرسالة الإسلامية ما جاءت إلا لإثبات هذه القضية !!

والذي بدا لي أن هذا الهوس يرجع إلى التعلق بغير اللّه تعالى ، ودعاء المقبورين لعمل العجائب .

فإذا قلتَ : رجل مات ما تنتظرون منه ؟ قيل : انه - حياً أو ميتاً - يفعل بقَدَر اللّه .. فالتعلق به لا يُنكر ، فإذا اعترضت جاء الاتهام السريع : أتنكر كرامات الأولياء ؟ وأمة يدور تفكيرها في هذه القوقعة كان لا بد أن تنهار أمام أعدائها ...

* * *

٥ - تقاليد الرياء في المجتمعات الإسلامية :

كان السَلَف الأول أسلم الناس فطرة ، وأصفاهم طبيعة ، كان اللّه تبارك اسمه غايتهم فيما يفعلون ويتركون ، وكان رسوله قدوتهم المحببة ، وكان هواهم تبعاً لما جاء به صلى اللّه عليه وسلم .

وكان انقياد الأمم لهم يتم بعد التعرف عليهم ، والتفرس في سيرتهم ، والواقع أن هذا هو السر الأول في انتصار الإسلام واستقراره في الأرض ..

أما مسلمو القرون الأخيرة فقد استحدثوا تقاليد كثيرة في نواحي حياتهم كلها ، تقاليد تقوم على التكلف والتزويق ، وتبتعد عن فطرة الإسلام السائغة ، وجعلوا هذه التقاليد حدوداً صارمة لا يتعدونها مهما فدح ضررها .

لما تأيَّمت حفصة بنت عمر بن الخطاب من زوجها الأول ، لم يَرَّ الرجل الكبير غضاضة من مفاتحة صديقه أبي بكر في الزواج منها ..

وعمر بهذا التصرف رجل يحترم الطبيعة الإنسانية ، وتتحرك في فؤاده عاطفة الأبوة .

والإطار الذي يعمل داخله هو فطرة الإسلام السهلة ، فلا ريبة إلا فيما يُغضب اللّه ، وكرامته الخاصة مصونة وغالية ما بقي حريصاً على مرضاة اللّه ورسوله .

ثم خلفت خلوف لها منطق آخر يحار فيه اولو الألباب .

الرجل له ابنة في سن الزواج بل توشك أن تتخطاه .. يجيئها خطيب كفء يعرض المهر الذي استطاع جمعه ، فإذا الأب يقول في صراحة : لا .. لا بد من عشرات الألوف من الجنيهات ...

ثم تمر السنون وتُغلق الأبواب على عوانس كثيرات بائسات يائسات ..لِمَ ؟

لأن تقاليد الرياء التي تحكم المجتمعات الإسلامية في بلاد كثيرة حكمت بهذا على البنات .

إن الرياء شرك ، وهذا الشرك سيطر على أعراف وعادات جعلت المسلمين يرقب بعضهم بعضاً ويتقى بعضهم بعضاً ، وجعلت الرجل - باسم كرامته الخاصة أو كرامة الأسرة التي ينحدر منها - يعيش طول عمره وفق أوضاع وقيود من صنع الاستعلاء والتزمت ..

أراد عمر بن عبد العزيز إسراج مصباحه فقام وفعل ما أراد ، فقال له واحد من المجلس : كنتَ تأمر أحدنا بذلك ! فقال : قمتُ وأنا عمر ورجعتُ وأنا عمر !

إن الرجل العظيم لم يحس غضاضة في تصرف يأنف منه الصغار في عصورالانهيار . ولا غَرو فعمر يُقلِّد رسول اللّه ﷺ الذي قام بنفسه يخدم وفد الحبشة ، فلما قيل له : نكفيكَ هذا ... قال : لا .. إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين .... وهو الذي رأى أن يجمع الحطب عند إعداد الطعام واشتراك الأصحاب في ذلك ، فلما عرضوا عليه أن يستريح أبى لأن اللّه يكره أن يتميز الرجل على أصحابه .. إن الأمة الإسلامية في القرون الأخيرة جمعت الكثير من الجاهليات في مسالكها الخاصة والعامة ، في نفقاتها ، في صداقاتها ، في أحزانها وأفراحها ، في علاقاتها بحُكّامها .. ولم تكن تفسيراً عملياً لأحكام الإسلام وحدوده ، وفطرته وسماحته ..

علماء لهم سمت الكهنة ، وحكّام لهم سطوة الجبابرة ، ودهماء محصورون في طلب القوت ، ومساجد سامقة البناء يعمرها من لا همة لهم ولا طموح ، وكأن المسلمين إخوة لمن وجدهم ذو القرنين دون السَدّين : ﴿ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً .. ﴾ (١) .

* * *

(١) الكهف : ٩٣

٦ - وضع المرأة فى عصور الضعف :

في حديث مكذوب رواه الحاكم أن المرأة لا يجوز أن تتعلم الكتابة ، وفي حديث متروك آخر أن المرأة لا يجوز أن ترى أحداً ولا يراها أحد ..

على هذه الآثار انبنى حرمان المرأة من التعليم ومنعها من الذهاب إلى المدرسة .

وفي مرويات أُخرى تخالف المتواتر والصحيح من السُنَن حُظِر على النساء جملة الذهاب إلى المساجد ، فأقفرت منهن بيوت اللّه ، وانقطعن عن التوجيه الديني فلا قرآن ولا حديث ولا فقه ، بله سائر العلوم الأدبية والإنسانية ...

وبذلك أصبحت المرأة المسلمة دون غيرها من نساء العالَم أقل ارتباطاً بالدين واتصالاً بالمجتمع ..

ولما كانت المرأة ربة البيت ، وحاضنة الأولاد ، وغارسة الشمائل الطبية أو الخبيثة ، والأفكار الخاطئة أو الصحيحة ، فإن حبل التربية اضطرب في العالَم الإسلامي اضطراباً شديداً وكان ذلك لا ريب من أسباب خوره وانهزامه .

وقضية المرأة لا تُعالَج على ضوء النصوص قدر ما تُعالَج على ضوء ملابسات نفسية أُخرى .

فهناك ناس مصابون بسوء الظن ، وشدة الغيرة ، وتصديق الأوهام ، وهناك مصابون بعلل الشيخوخة وأعراض الضعف الجنسي ، يتطيرون من خروج المرأة إلى مسجد أو مدرسة ، فيطوِّحون بكل قول صائب إيثاراً لما وقر في نفوسهم ..!

فإذا انضم إلى هؤلاء اتباع الشائعات العلمية والآثار التافهة علمنا أى حيرة تكتنف قضية المرأة ...

والواقع أن الملك فيصل رحمه اللّه لم يتمكن من تعليم البنات في السعودية ، وفتح المدارس لهن ، إلا بعد لأى ، وفي وجه مقاومة ما كان غيره يستطيع التغلب عليها ..

وبدهي أن الخط الذي رسمه الإسلام للمرأة غير الخط الذي رسمته الحضارة الحديثة فإن هذه الحضارة أطلقت الاختلاط ، وارتضت نتائجه على الأعراض ، ورفضت قيماً دينية مقرَّرة في كل وحى نزل ..

وقد يكون الأغبياء من رجال الدين أحد الأسباب وراء هذا الانحلال ، كانوا يعاملون المرأة بعقلية السجان فجاء من قذف بها في الطريق متحررة من كل شيء !!

إن تَعَلُّم المرأة وتعبُّدها يجعلان منها إنساناً مصوناً مأموناً ، ويجعلان منها ربة بيت منجبة محسنة ، تنشأ الأجيال في كنفها وهي تألف الشمائل الزاكية والمسالك العالية .

وأكاد أجزم بأن انهيار التربية السليمة في العالَم الإسلامي - خلال الأعصار المتأخرة - يرجع إلى أن المرأة قُصِرت على الشئون الحيوانية من طعام وسفاد ، وأن ما وراء ذلك يجيء على هامش حياتها ، وحياة الأُسرة .

عندما كانت المرأة تذهب إلى المسجد حتى القرن الخامس والسادس كانت مصدر خير لرجلها وولدها والجماعة كلها ، وقد قرأتُ أن سيدة مؤمنة تأثرت بحديث خطيب المسجد عن جهاد الصليبيين ، وما أعد الله من درجات عُلا لأولئك المجاهدين .

ولكن أنَّى لها الجهاد وهى امرأة ؟ فماذا تصنع ؟

جذّت شعرها المسترسل وبعثت به إلى خطيب المسجد مع رُقعة كُتِبَ فيها : إنها ترجو أن يُجدل هذا الشعر ليكون حبلاً يُقيِّد به جواد أحد المجاهدين في سبيل الله .

وقرأ الخطيب الرُقعة على الناس ، وضَجَّ المسجد بالبكاء والتكبير ..

وانبعث أُولو النجدة والبأس الى الميادين بعد ما هزَّهم هذا المثَل من امرأة مؤمنة ، إن حَمَلة الصليب لم ينكسروا وينكسر معهم شعارهم إلا بهذه المعادن الصلبة من الإيمان الصاحي في قلوب الرجال والنساء على سواء ..

أما النسوة الجاهلات فهن يحسن البكاء على مفقود ، أو الصياح لرغبة لم جَبْ ، وما يدرين عن قضايا الدين والدنيا شيئاً .

ونحن نؤكد مرة ومرة أن مكانة المرأة المسلمة في المجتمع المسلم شيء آخر غير ما يقع في أوروبا وأمريكا الآن للنساء ، وشيء آخر غير ما يقع في أقطار واسعة من العالم الإسلامي حيث شخصية المرأة ممحوقة من الناحية الدينية والثقافية ، وقد تكون باقية للحديث عن ثوب غال وحلية نفيسة .. أما ما عدا ذلك فهي منه صفر .. !

وأذكر أن بعض الحرّاس على تقاليد الجهل ناقشني في هذا الموضوع وقال : الزوج أو الأب يُعلّم النساء في البيت ويُعوّدهن الصلاة داخله ، ولا معنى لخروجهن والتعرض للفتنة .. !!

قلت : إن صاحب الرسالة لم يرسل هذه الخطة التي تقترحها .. فهي مرفوضة من هذه الناحية .

وناحية أُخرى ، إن هذا الذي ترجوه مُعلّماً لأهل بيته يحتاج مثلهن للتعليم ، ضَعُفَ الطالب والمطلوب .

المرأة الروسية ، غزت الفضاء ، ويُراد أن تعجز المسلمة عن معرفة الطريق إلى المسجد ، كل دين في عصرنا مهما بلغ بُطلانه ربط النساء بمعابده ، ويُراد من الإسلام وحده أن ينفي النساء عن بيوت الله .. !!

لقد أشرتُ إلى أن قضايا النساء لا تُعالَج بعلم قدر ما تُعالَج بُعقَدٍ نفسية ، وأمزجة سوداوية ، وقصور يدّعي الغيرة ، ويتطاول على الحقائق .

والمعالِم التي صان الإسلام بها الأعراض ينبغي إبرازها ، فلا خلاعة ولا تبرج ، ولا يؤذن بخلوة مع أجنبي ، ولا يؤذن بعمل ما يؤدّي إلى ذلك .

والأعمال الفنية والإدارية التي يقوم بها النساء ، وكذلك جميع الثقافات اللاتي يحتجن إليها أو يرغبن فيها يمكن أن توضع لها الضوابط الإسلامية التي تحفظ حدود الله ..

والحكم في هذه الأُمور لا يُؤخذ من أشباه حفيد عمر الذي قال لأبيه بنزق وطيش : والله لنمنعهن - وهؤلاء كثيرون في دنيا الناس - إنما يؤخذ الحكم من الفقه الصادق في الكتاب والسُنّة .

والغريب أن الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ألّف كتاباً في الحجاب اعتمد فيه على ما ثبت من نصوص ، ولكن الكتاب مُنِعَ تداوله لأنه على غير ما يهوي البعض ، فإن عقلية السجّان لا تزال تُسيطر على نفر غير قليل من المتحدثين في شئون المرأة .. إنهم يريدونهامحبوسة في عُقر الدار لا ترى أحداً ولا يراها أحد حتى تنتقل من ضيق البيت إلى ضيق القبر ...

* * *

٧ - ذبول الأدب العربي :

التدين الفاسد لا يكسب الآخرة ، ولا يحفظ الدنيا ، وقد لوحظ أن المسلمين لما ضعف إيمانهم وجَفّت ينابيع التقوى في أفئدتهم ، أضاعوا دولتهم القائمة على قيم بيِّنة ، وأضاعوا في الوقت نفسه عناصر حياتهم العاجلة ، وفقدوا الإحساس بالجَمال والقبح ، وأصاب ملكاتهم الأدبية ضمور شائن ، فانحط الشعر والنثر ، وَقلَّ الأدباء المصوِّرون كما قَلَّ المؤلفون والمفكرون ..

ونظرة إلى الأدب ورجاله منذ القرن السادس تجعلنا نشعر بهذه الحقيقة فالديباجة الفخمة ، والنفس الرائق ، والوصف الكشاف ، والحكمة النفّاذة ، والغزل الرقيق ، والرثاء الذي يغزو النفوس بالحزن الرفيع ، والمدح الذي يرسم المُثل العالية ، خلال الثناء الصحيح أو المزعوم ... كل ذلك تلاشى .

وانكمش الأدب شعراً ونثراً انكماشاً يُثير الاشمئزاز ، فبعد أن كان الشاعر يقول القصيدة ملأى بالجمال الفني أياً كان موضوعها جاء شعراء صغار احتقر التاريخ أسماءهم ، يقول أحدهم ملغزاً في خاتم ، أو واصفاً شمعة ، أو مهنئاً بمناسبة ...

وكأن العرب في جاهليتهم كانوا أقدر على الحياة وأشعر بأفراحها وأحزانها منهم بعد سقوط بغداد ، أو حتى بعد فتح القسطنطينية !!

وقد فار الأدب العربي أوائل هذا القرن الرابع عشر فورة عظيمة ، وُجدَ شعراء كشوقي ومحرم والبارودي وحافظ والزهاوي والرصافي ، كما وُجِدَ أدباء أعادوا للعربية قوة الأداء وسحر البيان .. ولكن هذه النهضة اعتُرضت بقوة ويجرى الآن

قتلها ومحو آثارها ، لأن القضاء على اللُّغة العربية جزء من المُخطط المرسوم للقضاء على الإسلام نفسه .

ونريد التنبيه إلى أن ازدهار الأدب يُعين الدعوة الإسلامية على الانطلاق كما يُعين مراجع الإسلام الأولى على التألق ويُقرِّب الانتفاع منها ..

ويوجد علماء دين في هذا العصر نصيبهم من الأدب العالى والبيان الشافي قليل ، وهؤلاء عبء على الإسلام وفقهه ودعوته .. فإن معجزة هذا الدين كتاب ، ورسوله إنسان مُرهَف الحس ، أُوتى جوامع الكَلِم ، فكيف يتذوَّق الإسلام امرؤ محروم من الذوق الفني ومن القدم الراسخة في اللُّغة وآدابها ؟

* * *

٨ - سياسة المال فى المجتمع :

اضطربت سياسة المال ، وساء تداوله في المجتمع الإسلامي ، ونشأ عن ذلك فقر مُدقِع وترف مُفسِد ، وكادت تعاليم الإسلام في هذا الميدان الخطير تُنسى أو تُجحد.

(أ) إن الأرض لم تشهد جيشاً يسير لأخذ حقوق الفقراء من الأغنياء الباخلين إلا الجيش الذي سيَّره الخليفة الأول ، ولن تشهد فقهاً اقتصادياً منصفاً للكادحين والمساكين إلا فقه الخليفة الثاني .

وبين الحين والحين تبرق لُمع من العدل تُضيء الطريق للمتعَبين ، ولكن أغلب الحُكَّام لم يهتم بهذا الجانب الإسلامي ، فتعرضت جماهير الفقراء لغبن كبير .

(ب) أعلن الإسلام أن المال صنو النفس ، وأن الحفاظ عليه ، والدفاع عنه يساوي المحافظة والمدافعة عن الدم والعِرض ...

ومع ما تقرَّر من أن كل لحم نبت على سُحت فالنار أولى به ، فإن كثيراً من الحاكمين وحواشيهم أخذ الأموال الوفيرة عن طريق النهب الذي ترتفع له العيون دهشة أو طريق الرِشوة التي لا تُقضَى الحاجات إلا بها ..

ومن أقبح صور الرشوة والفساد ما وقع من « بلطجي باشا » قائد الجيش التركي . فإن الجنود المسلمين استطاعوا تطويق الروس في إحدى المعارك الحاسمة ، وكادوا يقضون عليهم قضاءً مُبرماً ، ولكن القيصرة « كاترين » ذهبت إلى القائد التركي بنفسها ومالها وكان ما كان ، وصدرت الأوامر بفك الحصار !!

واستأنف الروس ضربهم لدولة الخلافة الضرب الذي قرَّب الرجل المريض من الموت !!

وشيوع الرشوة بين المسئولين الكبار أمر يخزى حتى قيل :

وزير لا يمل من الرقاعه ... يُولَّى ثم يَعزل بعد ساعه !

إذا أهل الرشا صاروا إليه ... فأحظى القوم أوفرهم بضاعه !

والصورة الساذجة للرشوة مال يُهدي ، ولكن صور الرشوة أمست أعقد من ذلك وأبعد عن المؤاخذة ، ولكن هل ما نجا من مؤاخذات الجماعة يفر من عقاب الله ؟

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ * وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

(جـ) البطالة آفة تأكل الدولة وتجرها إلى الحضيض ، والمفروض أن الدولة مسئولة عن إيجاد شتَّى الحرف للعاطلين ، وافتتاح أبواب الرزق من أبعد مظانها حتى تضمن موارد ثرة لهم ولها ، وإلا فكيف تؤدِّي رسالتها ؟

إن النبي ﷺ وَجَّه العاطلين للعمل ، وعَدَّ نفسه مسئولاً عن القاعد حتى يعمل والمحتاج حتى يجد ...

والدول التي ترفع رايات الوثنية أو الإلحاد أو الشرك ترى من صميم وظيفتها النهوض بهذا الواجب ، فكيف تنكل عنه حكومة مسلمة ؟

---

(١) الأعراف : ٧ - ٨

والبطالة المُقنَّعة لا تَقِلُ سوءاً عن البطالة الصريحة ، ومن المأثور عن عمر بن الخطاب : « إني أرى الرجل فيعجبني ، فإذا علمتُ أنه لا عمل له سقط من عيني » !

وقد امتلأ العالَم الإسلامي بالطاعمين الكاسين من فضول أموال لا يُدري كيف نبتت أُصولها .. ولا بد من النظر بخوف إلى هذه الفئات التي تستهلك ولا تنتج ..

والذي يدفعنا دفعاً إلى هذا النظر ، ليس ما وقع في الماضي فقط من مآسي شداد ، إنما هو ما يقع في العالَم الآن من تجنيد لكل الطاقات .

ونحن نعلم أن دولاً تقوم الآن على أن بطاقة الأكل لا يُحرزها إلا من لديه بطاقة عمل !! ، فمن المهم أن تعمل الحكومات الإسلامية بجد على جعل العمل معصوباً بجبين كل رجل ، بحيث لا يبقى مكان محترم للبطّالين ..

* * *

٩ - الفساد السياسي :

يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

لكنه في ميدان الحكم طاحت الأمانات ، وقلما عُثِرَ لها على أثر . ولندرس تاريخنا لنأخذ منه العبر ..

ما وُسِّدَ الأمر إلى أهله ، وما حاول الذين وُسِّدَ اليهم الأمر أن يرتفعوا إلى مستواه ، ولا قنعوا مادياً وأدبياً بالعيش في نطاقه المحدَّد ..

لقد خُولفت خطة السلَف في اختيار الأكفاء . فإذا كان أبو بكر بويع لأنه أفضل الناس ، وإذا كان عمر اختير لكفاءته وقوَّته ، فإن الجمهرة العظمى من الحكام وُلُّوا مناصب هم دونها بمراحل ، ولما وُلُّوها اتخذوها مصيدة لدنيا عريضة ، واستمتاع مطلق . وكانت نتيجة ذلك وبالاً على الدولة وسواد الأمة ومستقبل الرسالة ..

---

(١) الأنفال : ٢٧

وقد بدأ هذا الانحدار رويداً رويداً ، ثم شرع على اختلاف اللّيل والنهار يتكشف حتى سقطت الخلافة أول هذا القرن .

واقترن باختيار الخلفاء على ذلك النحو ما يلي من مخلفات دينية :

(أ) أهملت الشورى ، ولم يعتمد عليها الحاكمون في إحكام الشئون الدينية مع أن الإسلام قرَّر أن المجتمع يقوم على التناصح ، والتواصي بالحق ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والتعاون على الخير ، ورفض الإعجاب بالرأى ، والافتيات على الجماعة . !

وهذه المعاني قد تقع لها صور ساذجة فيما يدور بين الناس من حديث ، أو فيما يسعون له من مصالح ، لكنها تحتاج إلى مؤسسات جادة ضخمة لضبط شئون المسلمين بين المحيطات العُظمى التى تحد عالَمهم الكبير .

(ب) العجز الإداري : وهو من وراء الفتوق ، والخروج على الدولة في عهود شتّى ، ونشوء دويلات كثيرة ، بعضها لم يخلص للإسلام ولاؤه ، بل بعضها كان حرباً عليه .

ومن الفواجع أن دولة القرامطة فتكت بقوافل الحجيج سنين عدداً ، وأنها انتزعت الحجر الأسود من مكانه ، وعجزت دولة العباسيين عجزاً مفضوحاً عن استرداده ، فما عاد الحجر إلا بتفاهم بين القرامطة والفاطميين ! !

وقد فرض النظام اللامركزي نفسه في وجه رغبة من الخليفة العاجز أن يحكم القارات ، دون مواهب وقدرات .

وقد يختفي العجز الإداري حيناً مع وجود حاكم شديد البأس ، ثم يبرز الداء ويُعاني المسلمون آلامه .

(جـ) فقدان الأجهزة المسئولة عن الدعوة في الداخل والخارج :

المسلمون حملة رسالة ، ودولتهم تنهض على فكرة معينة ، وبديه أن تتكون في مجتمعهم الأداة التي ترقب سير الدعوة في الخارة وتُشرف على كيانها في الداخل ، وأن يكون هناك رصد يقظ للأرباح والخسائر ، والانتصارات والهزائم .

وقد كنتُ أسأل نفسي أحياناً : هل انعقد مؤتمر للبحث عن سبب سقوط القدس في الحملة الصليبية الأولى ؟

هل انعقد مؤتمر للبحث عن سقوط بغداد وأسباب اجتياح التتار للدولة ؟

هل انعقد مؤتمر للبحث في أحوال مسلمي الأندلس ، وتعرض دولتهم للانكماش حتى تلاشت ؟ ؟

إن الجفوة الرهيبة بين العلم والحكم كانت من وراء الاضطراب الشديد في العالم الإسلامي ، وكانت من وراء الذهول المعيب عن قضاياه الكبرى .

ربما كان هناك اكتراث شعبي ينفخ العلماء أحياناً فيه ليتحوّل إلى عمل مبرور ، وجهاد صالح .

لكن الحكام كانوا في وادٍ آخر ، ولعلهم آخر من يعلم ويتحرك .. !!

(د) مع الغفلة السائدة عاشت داخل الكيان الإسلامي فرق دينية أبطنت الخيانة والمروق وظلت تنتظر الفرص المواتية لضرب الإسلام وطعن أُمتة في ظهرها .

وقد تحركت هذه الفِرق مع الزحف الاستعماري الأخير ، وأعانت الغُزاة على إدراك لُباناتهم من هذا الدين المسترسل السمح ..

* * *